دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	المفكر الحقيقي .. سياسي لا يعرف " التأتأة " !
المصدر:	مجلة الدبلوماسي
الناشر:	وزارة الخارجية - معهد الأمير سعود الفيصل للدراسات الدبلوماسية
المؤلف الرئيسي:	همام، سيد أحمد علي
المجلد/العدد:	ع 32
محكمة:	لا
التاريخ الميلادي:	2007
الشهر:	يناير - محرم
الصفحات:	32 - 35
رقم MD:	384831
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	EcoLink
مواضيع:	الديمقراطية ، الفلاسفة ، الدولة ، أرسطو ، النظم السياسية ، السلطة السياسية ، الإصلاح السياسي
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/384831

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

المفكر الحقيقي..
سياسي لا يعرف «التأتأة»!

د. سيد همام - ألمانيا

الإنسان كائن اجتماعي بطبعه، فهو الكائن الحي الوحيد الذي لا يستطيع أن يحيا منفردًا تمامًا بمعزل عن الجماعة، وقد كرمه الله، سبحانه وتعالى، وفضّله واختصه بنعم عديدة من أهمها نعمة اللغة التي يتواصل بها مع أفراد مجتمعه، ويحفظ بها تاريخه، ونعمة العقل التي يدرك بها العلاقات بين الأشياء، ويقرر بها موقفه من الأشياء والأحداث، ويحدد بها اختياراته في الحياة ويفكر ويبدع بها، كما يؤكد الغزالي في كتابه: «إحياء علوم الدين» شرف العقل مستشهدًا بالحديث القدسي الذي يقول: «أول ما خلق الله العقل، فقال له: أقبل فأقبل، ثم قال له: أدبر فأدبر، ثم قال الله، عز وجل: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقًا أكرم عليّ منك، بك آخذ وبك أعطي، وبك أثيب وبك أعاقب».

كما أنه لا يمكن أن يكون هناك تواصل بين الإنسان وبين بني جنسه دون نمط لغوي، لذا فقد ارتبطت نشأة الفكر بنشأة الكلام الإنساني ارتباطًا لا انفصام فيه. وأيضًا لولا العقل لما استطاع الإنسان أن يجزم بوجوده مقارنة بالحيوان الذي يتحرك، ويأكل دون أن يشعر بوجود نفسه، لأنه لا يملك الذهن المدرك. ومن هنا نفهم العبارة الشهيرة التي أطلقها رينيه ديكارت: «أنا أفكر، أو أدرك، إذًا فأنا موجود». وبهذه العبارة الصغيرة هدم ديكارت كل بناء العالم القديم القائم إلى عصره (١٥٩٦-١٦٥٠) الذي يسلم بالموروث في كل ميادين المعرفة (العلمية، والدينية، ونظم السياسة، والمجتمع). فأمام هذا الجمود والتسليم المطلق بالموروث نادى ديكارت بأن نعرض كل شيء على العقل، وأن نعمل فيه الفكر بادئين بالشك فيه إلى أن ننتقل بالفكر والبحث والدراسة إلى اليقين، وهكذا يرتفع بناء العلم اليقيني الذي تبنى عليه الحضارات. فالتسليم بالموجود القائم ينتهي بالذهن إلى الركود، وبالتالي إلغاء الفكر، والإحساس بالوجود، فالتفكير يعني الحياة بالنسبة للإنسان. فالله، سبحانه وتعالى، يأمرنا بالنظر والتأمل في الكون، ثم إعمال الفكر نواميسه وآياته لكي نصل لمرحلة اليقين بالخالق.

ومن هنا فواجب من واجبات الإنسان أن يفكر من أجل إسعاد نفسه، ومن أجل مصلحة الآخرين.

وهنا لن نتعرض للتفكير العادي، ولكننا سنتناول الفكر بمعناه الأشمل والأوسع، والذي أدى إلى بناء الحضارة الإنسانية، وتقدم المجتمعات، وتطورها بفضل أولئك المفكرين الذين عرفوا قيمة العقل ودوره في حركة التنوير. كما عبر عن ذلك إيمانويل كانط (١٧٢٤-١٨٠٤) في بيانه الشهير حين يقول: «التنوير هو خروج الإنسان عن قصوره الذي اقترفه في حق نفسه. وهذا القصور هو عجزه عن استخدام عقله إلا بتوجيه من إنسان آخر. ويجلب الإنسان على نفسه ذنب هذا القصور عندما لا يكون السبب فيه هو الافتقار إلى العقل، بل إلى العزم والشجاعة اللذين يحفزانه على استخدام العقل بغير توجيه من إنسان آخر. لتكن لديك الشجاعة لاستخدام عقلك، ذلك هو شعار التنوير». هؤلاء المفكرون هم الأبطال العظام الحقيقيون بنوا

■ المفكرون هم الأبطال العظام الحقيقيون بنوا صروح إمبراطوريات عقلية، وروحية، وفكرية خالدة وقادوا، ولا يزالون يقودون، البشرية ومجتمعاتها بفكرهم

صروح إمبراطوريات عقلية، وروحية، وفكرية خالدة وقادوا، ولا يزالون يقودون، البشرية ومجتمعاتها بفكرهم، ولكن ليس على أنقاض الجثث المضرجة بالدماء كما فعل ويفعل عتاة العسكريين والطغاة في كل زمان ومكان. فالمفكرون خالدون بفكرهم، والطغاة تلاحقهم اللعنة للأبد.

يهمنا هنا قبل أن نتحدث عن سمات المفكرين وطبقاتهم وموقف السلطة منهم أن نعود ثانية لإكمال ما بدأناه من أن الإنسان كائن اجتماعي، وكيف تنشأ الدول وتدار وكيف يفكر مواطنوها.

نشأة الدولة

ظهرت الدولة، وفقًا لمفهوم أرسطو، نتيجة لتطور الأسرة التي هي النواة الأولى في بناء المجتمع، والتي نشأت نتيجة للحاجات الضرورية التي يشعر بها المرء، وأهمها، في رأيه، الحاجة إلى التناسل لبقاء النوع، فضلاً عن الحاجة إلى الطعام والشراب والمسكن والملبس.. إلخ، مما يعجز الفرد الواحد عن القيام به. ويظل الأفراد يعيشون في أسر منعزلة ما داموا لا يشعرون بالحاجة إلى إشباع رغبات جديدة أكثر من الحاجات اليومية، فإذا ظهرت حاجات، أو رغبات أخرى مثل حماية الأفراد داخل الأسرة من الهجمات التي تشنها الأسر الأخرى، أو من خطر الحيوانات المفترسة، فإن الحاجة تصبح ماسة إلى تجمع الأسر واتحادها في مجتمع أعلى لتكون عشيرة، ثم إذا ما اتسعت العشيرة وزاد عددها فاحتلت بقعة من الأرض لتسكنها، فأصبحت قبيلة، ومن مجموع القبائل تكونت القرية، وبتجمع القرى ظهرت المدينة.. وبانضمامها إلى مدن أخرى تكونت الدولة.. فالدولة هي الهدف النهائي للاجتماع البشري لتحقيق الأفضل لأفرادها. وهكذا نرى أن هذه النظرية تقوم على إرجاع أصل الدولة إلى الأسرة، وأساس سلطة الحاكم إلى السلطة الأبوية المتمثلة في رب الأسرة.

في المقابل هناك نظريات أخرى تبحث نشأة الدولة، لكن أغلب الكتاب والمفكرين، مثل ابن خلدون، يركزون على نظرية القوة. وليس هناك أدنى صعوبة في إثبات أن كل المجتمعات السياسية الحديثة تدين بوجودها بشكل مباشر أو غير مباشر إلى القوة، فالحرب هي التي تلد الدولة. والدولة طبقًا لنظرية القوة لا تعدو أن تكون في الواقع نظامًا فرضه شخص أو أشخاص بطريقة العنف على باقي الأفراد لحملهم على الخضوع لهم واحترامهم، وهذا ما يظهر في الانقلابات العسكرية أو الثورات الاجتماعية. إن القوة عنصر مهم من عناصر قيام الدولة من أجل الوحدة، والأمن، والاستقرار، وبدونها تصبح الدولة فريسة للعوامل الهدامة. والقوة في معناها الحديث تتسع لتشمل الكثير من نواحي الحياة الفكرية، والاقتصادية، والسياسية.. ولكنها وحدها لا تكفي، كما يتصور بعضنا، لأن تكون مصدرًا أو أصلاً في نشأة الدولة.. لذلك يقال إن القوة بدون الحق يمكن أن تكون في أحسن الأحوال مؤقتة، ولكن القوة مع الحق أساس دائم لبناء الدولة واستقرارها.

وهناك، أيضًا، نظرية العقد الاجتماعي التي قال بها جان جاك روسو، حيث تعيد نشأة الدولة إلى الإرادة المشتركة لأفراد الجماعة، أي أن الأفراد اجتمعوا واتفقوا على إنشاء مجتمع سياسي يخضع لسلطة عليا. فالدولة على هذا الأساس وجدت نتيجة لعقد أبرمته الجماعة، إلا أن هذه النظرية تعرضت، بصورها المختلفة، إلى مطاعن عديدة، ولكن أهم نقد وجه إليها، هو أنها تقوم على أساس افتراضي خيالي، لا أساس له من الواقع، إذ إن الأفراد لم يبرموا هذا العقد قط..!!

وبتكوين الدولة، سواء جاء ذلك عن طريق انضمام الأسر إلى بعضها، أو عن طريق القوة والحرب، أو جاءت تسميتها بدولة بعد فترة من الاستعمار، كان لا بد من أن يكون لها حاكم وحكومة، وقد يأتي هذا الحاكم بطريق ديمقراطي عن طريق الانتخابات الحرة، أو

يأتي عن طريق انقلاب، أو تزوير، أو تعيين، أو وراثة إلى آخر هذه الطرق التي يتم بها حكم البلاد.

وأيًا كان الحاكم وبطانته وحكومته، فإنه إذا ما انحرف عن جادة الحق والعدل، فإنه غالبًا ما يحمل أصحاب الفكر والرأي لواء الرفض والمقاومة في هذه المجتمعات، كلاً على حسب مقدرته عملاً بالحديث الشريف «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان».

ولا يقتصر دور المفكرين العظام على ذلك، بل إنهم يدلون برأيهم بجرأة وجسارة في السياسات الاقتصادية والاجتماعية التي تنتهجها حكوماتهم، ويطرحون رؤى بديلة أو تعديلات للنظام القائم، وهنا إما أن يتصادم المفكر مع السياسي الحاكم، أو يتمكن الحاكم من احتوائه، بحيث ينقلب المفكر إلى خدمة النظام، ويبرر للحاكم أفعاله ويزينها له، أو أن يؤثر السلامة ويهرب من البلاد، أو أن يعيش في عزلة، ويحتفظ بفكره لنفسه ويموت دون إحداث أي أثر في حركة الحياة المستمرة في محيطه الضيق، أو محيط مجتمعه الكبير.

طبقات المفكرين وسماتهم

قبل الدخول في تصنيف المفكرين يهمنا أن نشير إلى أن الله، سبحانه وتعالى، قال في كتابه الكريم: ﴿يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرًا كثيرًا﴾ (البقرة: ٢٦٩). كما يهمنا، أيضًا، أن نشير إلى ما روي من أن عبدالله بن سلام، رضي الله عنه، سأل النبي، صلى الله عليه وسلم، في حديث طويل في آخره وصف عظم العرش وأن الملائكة قالت: «يا ربنا هل خلقت شيئًا أعظم من العرش؟ قال: نعم، العقل. قالوا وما بلغ من قدره؟ قال: هيهات لا يحاط بعلمه. هل لكم علم بعدد الرمل؟ قالوا: لا. قال الله، عز وجل: فإني خلقت العقل أصنافًا شتى كعدد الرمل، فمن الناس من أعطي حبة، ومنهم من أعطي حبتين، ومنهم من أعطي الثلاث أو الأربع، ومنهم من أعطي فرقًا، ومنهم من أعطي وسعًا جمعًا، ومنهم من أعطي أكثر من ذلك». (راجع كتاب أنوار العقل للدكتور جابر عصفور ص٨). ودلالة الآية الكريمة والحديث الشريف، واضحة في تمايز العقول عن بعضها، وأن الله جلت قدرته لا يؤتي الحكمة إلا لمن اصطفى. فمن الناس من يستخدم العقل في الخير ومنهم من يستخدمه في الشر، وهناك من يستخدمه لصالحه فقط، وهناك من يستخدمه لصالح قومه، أو أمته، أو للبشرية جمعاء. وهناك من يستخدم العقل من أجل العلم فقط دون النظر إلى نتائج بحثه، كما يفعل بعض المتخصصين في شتى العلوم، أو من يطلق عليهم باللغة الألمانية Fachidioten أي الحمقى المتخصصين الذين لا يهتمون إلا بتخصصهم فقط، دون النظر إلى الجوانب الإنسانية. وبعيدًا وعن الرؤية الاجتماعية الشاملة فهؤلاء لا يتعدون الاختصاص العلمي ولا يصلون إلى لقب «المفكرين».

ولعلنا نتذكر في هذا الصدد أولئك العلماء الذين اهتدوا إلى سر انشطار نواة الذرة الذي قاد لاختراع القنبلة النووية.

أما المفكرون والذين يطلق عليهم أحيانًا لقب الفلاسفة فهم الذين يهتمون بتحقيق أكبر قدر ممكن من التكيف، والتلاؤم بين الإنسان وبين ظروفه الخارجية سعيًا إلى تحقيق التوازن. فالظروف الخارجية هي دائمًا الزناد الذي يقدح شرارة الفكر، ومن خلال هذه الظروف الخارجية تتجدد دائمًا نقطة البداية.

كما أن المفكر الحقيقي يختلف عن المثقف العادي الذي يلم فقط من كل علم بطرف،

ويكتب في العلوم الإنسانية بجانب تخصصه مسترجعًا ما قرأه، دون إضافة أفكار جديدة. فالمفكر هو الشخص الذي يمتلك رؤية نقدية شاملة للواقع والتاريخ، ويعرف سنن الله، تعالى، في الأنفس والآفاق، ويتمتع بحاسة الاستشعار واستشراف المستقبل، ويرسم من ذلك طريقًا مستقبليًا أفضل من الواقع المعاش، بعد أن يكشف وينقل تناقضات مجتمعه ومشكلاته إلى حسّ الناس واهتماماتهم، وينذرهم ويوجههم إلى طريق الفلاح، لتصبح تلك الرؤية إحدى مفردات هموم مجتمعه اليومية. وما أكثر المثقفين! ولكن ما أندر المفكرين!

وصاحب الفكر الحقيقي لا تستهويه السلطة ولا يسعى إليها، إنما يعتقد أنه صاحب رأي مستقل قد ينسجم مع معطيات السياسة المطروحة في وقته أو يتعاكس معها، كما يعتقد أنه صاحب رسالة تنويرية هادية لحياة أفضل، ويرى نفسه مدافعًا عن العدل الاجتماعي، وكارهًا أن يحبس نفسه في صيغة عقائدية جامدة. وكثيرًا ما تكون حياته قلقة، فهو ليس ممن تنطبق عليه صفة «الإمعة» كما يبرزها الحديث الشريف: «لا تكونوا إمعةً، تقولون: إن أحسن النّاس أحسنا، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطّنوا أنفسكم إن أحسن النّاس أن تحسنوا، وإن أساؤوا فلا تظلموا»، بل قد يدفع حياته ثمنًا لما يحمله من فكر، ذلك أن ما يحدثه من استبصار في مشكلات أمته يتعارض مع مصالح فئات في المجتمع تقتات من وراء وجود تلك المشكلات، ما يثيرها عليه، ويجعله هدفًا لها.

إن المفكر الذي يمكننا أن نعده مفكرًا ذا قيمة هو من عينة «ديمقرايطس» (القرن الخامس، ق.م) الذي يعد المؤسس للفلسفة المادية، حين قال: إنه يفضل الظفر بفكرة تتقدم بها الحياة على أن يظفر بملك فارس. باختصار شديد يمكن أن نعرف «المفكر» بأنه إنسان متمرد على جمود الواقع، يرفض مبدأ ركوب الموجة الموافقة المطلقة لتحقيق مآرب مادية ومعنوية، فهو صاحب فكرة تتجاوز نفسه وتتسع إلى مجتمعه أو عالمه البشري الكبير، وكلما اتسعت الفكرة زاد وزن المفكر في ميزان الحضارة الإنسانية.

البيئة الملائمة للمفكر الحر

الفكر البناء والمفكر الحر بحاجة إلى مناخ سياسي ديمقراطي تسود فيه القيم الداعية

■ صاحب الفكر الحقيقي لا تستهويه السلطة ولا يسعى إليها، إنما يعتقد أنه صاحب رأي مستقل

والراعية للفكر والمفكرين، مناخ يسود فيه العدل والحرية، ويؤمن بحق المفكر في طرح أفكاره ومناقشتها بصورة موضوعية، والاستفادة من هذا الفكر إن كان فكرًا أصيلاً، وعدم دفع المفكر للتفكير بعزلة دون الضوابط الأرضية التي يقف عليها ويستمد منها فكره، ما يجعله متطرفًا، لأنه لم يجد من يحاوره بموضوعية دقيقة حتى لا يكون هناك مجال لإنبات أفكار شيطانية متطرفة، في المقابل لا يجب رفع شعار «كل من له رأس (أي رأس يفكر به) فلا بد أن تقطع».

إننا نتوق لهذا العهد الذي وقف فيه عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وهو خليفة خليفة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، على المنبر وهو يقول: «إذا أصبت فأعينوني، وإذا أخطأت فقوموني»، فيقوم أحد أفراد الرعية ويقول: «إذا أخطأت قومناك بسيوفنا»، فيحمد عمر ربه أن جعل في رعيته من يقوّم عمر ويرده إن أخطأ. فعمر بن الخطاب لا يرضى بتعبيد الناس ومصادرة عقولهم، وتغييبهم عن الساحة، بل يطالبهم بالمشاركة.

إن الصحوة الإسلامية بحاجة ماسة إلى العقول الناضجة المستنيرة القادرة على التفكير والإبداع، وعلى ولاة الأمر أن يستشعروا أهمية ذلك، فيحيوا هذه الملكة في نفوس مواطنيهم ورعايا دولهم، وبخاصة فئة المفكرين.

أما في المناخ السياسي السيئ فيتحول المفكر في الإصلاح إلى متهم بالفساد، وعندما يتحول السياسي إلى مفكر، فإنه بالضرورة سيلاقي مصيرًا مظلمًا، لأنه سيفضح ألاعيب السياسة، وسيتكلم بلغة الفكر الواضحة، ويحقق العدل والقيم الإنسانية الأخلاقية التي لا يمكن أن تنمو إلا في ظل نظام ديمقراطي حقيقي، ولا معنى للديمقراطية إلا إذا اقترنت بتوسيع الحريات، ونشر العدل، والارتقاء بمستويات المعيشة، والعدالة في توزيع الثروة، والمحاسبة في مستويات المسؤولية المختلفة. ولن يكون هناك ازدهار ورفاهية في ظل شيوع المظالم، واتساع الفجوة بين الأغنياء والفقراء. هذا بعض ما طالب به المفكر الماليزي المعروف أنور إبراهيم في كتابه «النهضة الآسيوية والاستبداد الشرقي»، وكان قد صعد بفكره المتفتح إلى قمة هرم السلطة في بلاده قبل أن ينقلب عليه رجال السياسة ويحيلونه إلى المحاكمة بذلك، بل وجه نقدًا لاذعًا لبلدان شرق آسيا لكونها لم تحقق الارتقاء بمؤسساتها القضائية بقدر ما ارتقت بأوضاعها الاقتصادية والاجتماعية، ويشير بصفة خاصة إلى سيطرة الشركات الاقتصادية العملاقة، متعددة الجنسية، وقدرتها على التأثير في القضاة لمراعاة مصالحها، الأمر الذي يجعل العدالة في تلك البلدان، ومنها بلده ماليزيا، وهمًا وشعارًا مزيفًا يستحيل تحقيقه. وطالب المفكر الماليزي القضاة، في ظل هذا الوضع، بأن يمارسوا سلطاتهم القضائية وفقًا لحكم القانون، وليس لحكم الفرد مهما كانت سلطته، أو مكانته أو نفوذه في المجتمع. وأشار إلى خطر الاستبداد السياسي، والظلم الاجتماعي، والفساد المالي والأخلاقي على أي محاولة للنهضة، كما أكد أن الاستبداد، والظلم، والفساد حلقات مترابطة، يؤدي أولها إلى آخرها، ويعود آخرها إلى أولها، ومن ثم فلا مناص من التصدي لها بلا هوادة ومحاصرتها من كل ناحية. هذه الأفكار المكتوبة والمنشورة في الكتاب فتحت على أنور إبراهيم أبواب العداوة والحرب من قبل خصومه الداخليين والخارجيين في آن واحد، إلى الحد الذي وصل إلى تقديمه للمحاكمة ثم السجن بتهم «الفساد» الذي طالما دعا إلى محاربته، والقضاء عليه.

وهكذا نرى أن رجال السياسة والمصالح والنفوذ وما يمثلونه من قوة في بلدان العالم الثالث لا يطيقون رجل فكر حر يريد أن يحمل مشعلاً يضيء به الطريق الموصل إلى النهضة الحقيقية، وهذا مثال للبيئات الخانقة للفكر الحر، والمفكر الجسور، وهو مثال من جهة أخرى للصراع بين المصالح السياسية الصغيرة والضيقة وبين المفكر الذي تتسع حدقة الرؤية لديه للمصلحة البشرية الواسعة.■